

حرية الفكر والاعتقاد في ظل حكم النول الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي - الحكم الرسمي والفاهمي نموذجا -

د. إسماعيل سامعي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توطئة:

بحث هذا الموضوع يتطلب منا طرح الأسئلة الآتية: ما طبيعة النظامين الرسمي الإباضي؛ والفاطمي الإسماعيلي؟ وما حجم وجود أهل الذمة في بلاد المغرب عموما؛ وفي فترة النظامين خصوصا؟ وما هي المكانة التي احتلها أهل الذمة من يهود ونصارى؟ وما نظرة المجتمع إليهم؟ وما حجم دورهم في مجالات الحياة السياسية؛ والإدارية؛ والاقتصادية؛ والاجتماعية؛ والعلمية؟ وأخيرا ما هي النتائج المحصلة بالنظر إلى مساحة الحرية التي توفرت في هاتين الدولتين أو المرحلتين، والتي تمتعوا بها وفيها؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات - التي هي في الوقت نفسه تحوصل محتوى الدراسة - نعرض الموضوع من خلال العناصر الآتية :

❁ مدخل تاريخي حول طبيعة الحكمين الرسمي والفاطمي:

إن دراسة حرية الفكر والاعتقاد في بلاد المغرب الإسلامي في فترة النهوض والتطور الحضاري - أي خلال أربعة قرون الأولى للهجرة - يستلزم الوقوف عند طبيعة الأنظمة السياسية التي قامت فيه، والمبادئ التي تبنتها، لأنها هي التي تحدد مساحة الحريات في مجالها، وعليه فإننا سنتحدث في هذا المدخل عن النموذجين اللذين سيكونان المحوران اللذان يدور عليهما موضوع الدراسة، وهما النظام الرسمي الإباضي، والنظام الفاطمي الإسماعيلي.

أ - النظام الرسمي الإباضي: الدولة الرسمية (160 - 296 / 776 - 909) هي إحدى الدول المستقلة عن الخلافة الإسلامية في المشرق، وأول دولة في ظل الإسلام التي قامت في المغرب الأوسط (الجزائر)، قاعدتها البشرية قبيلة زناتة إحدى القبائل البربرية العتيقة، وأديولوجيتها السياسية المذهب الإباضي الذي يقوم على مبدأ رفض

التعيين والوراثة في مسألة الإمامة الكبرى (رئيس الدولة)، وقد جعل بني رستم بذلك الإمامة شوري، وجوزوا أن يتولاها من عامة المسلمين متى رضت به الأمة ولو كان عبدا، وأنه يمكن عزله، أو قتله متى خالف¹، فالأصل عندهم تطبيق مبدأ النظام الجمهوري الذي تكون فيه السلطة العليا للشعب جميعا دون تمييز².

ونظام الحكم في الدولة الرستمية أرتكز أساسا على الكتاب والسنة حسبما تقوم عليه قواعد اجتهاد أئمة المذهب الإباضي تحت إشراف إمامها³.

وهو ما جعل المجال مفتوحا لتعايش عدد من أهل الأديان، والعقائد، والمذاهب من هؤلاء أهل الذمة اليهود والنصارى.

ب - النظام الفاطمي الإسماعيلي: الدولة الفاطمية الإسماعيلية (الدور المغربي 296. 363 / 909. 972)، التي قامت هي الأخرى على قاعدة بشرية هي قبيلة كتامة التي تمتد مضاربها في الشمال الشرقي لبلاد المغرب الإسلامي، وكان مذهبها الإسماعيلي، وخلفيتها العقدية.

ويعد قيامها على هذا الأساس العقدي - الأيديولوجي - في بلاد المغرب من الأحداث المستغربة حقا، حيث أن مذهب الدولة هذا، وهو من المذاهب الشيعية الغلاة، بينما كانت بلاد المغرب الإسلامي سنية خالصة تتراوح بين المالكية والإباضية⁴، إضافة إلى الأدارسة العلويين⁵.

ومنطلقات المذهب الإسماعيلي في عموما فلسفية، والمغرب ليس له في الفلسفة في هذه المرحلة، أكثر من تعاليم الشريعة الإسلامية، إذ أن الدين في مفهومها

¹ - الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل، تحقيق، محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة، 1980/1400)، 116/1.

² - سعد زغلزل عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، (الأسكندرية: منشأة المعارف، 1979)، 1/301.

³ - الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، (ط، 6، بيروت: دار الثقافة، 1983/1403)، 166/1.

⁴ - يعد المذهب الإباضي بمبادئه وتعاليمه الأصيلة قريب من السنة بل هو السنة نفسها كما يرى أهله، فهو مذهب معتدل في عمومه.

⁵ - سعد زغلزل عبد الحميد، المرجع السابق، 533/1.

واحد منذ أول الخليقة، والشرائع واحدة، لذلك فهي تدعو إلى العمل بمزيجها، فمن سعادة الإنسان أن لا يتعصب لرأي من المذاهب يقول إخوان الصفا: "فالمسلم هو من يقبل جميع الأديان، والشرائع بتمامها وكمالها"¹، ولذلك كان للدعوة الإسماعيلية القدرة على إنشاء نطاق يقوي من التوافق المعتقدى يقترب من المذهب العقلي الخالص، والغاء التعصب الديني².

لكن وبعد قيام الدولة الفاطمية الإسماعيلية بالمغرب عدل هذا المذهب عن كثير من غلوه مسيطرة للواقع الذي طبعته السنة، والإباضية منذ أمد بعيد. ولا غرو أن نجد ضمن هذا الاتجاه حظوظا واسعة لتعايش الأديان، والعقائد، والمذاهب، وكان لحرية الفكر دور هام في بلورة هذا التعايش دل على ذلك تلك المناظرات التي كانت تقوم بحضرة الخلفاء الفاطميين³، حيث كانت تعقد لاسيما على عهد المعز لدين الله الفاطمي. مجالس الخلفاء، ومجالس الأدب، ومجالس الدعوة، ومجالس العلوم، ونقل إلينا القاضي النعمان بعضا من تلك المجالس في كتابه الذي سماه بها "المجالس والمسائرات".

❁ وجود أهل الذمة "المعتقدات" في الدولتين:

لقد كان لأهل الذمة من يهود ونصارى وجودا ملحوظا عبر أنحاء بلاد المغرب الإسلامي، ويعود هذا الوجود إلى سببين أو عاملين هما:

الأول: البقايا السابقة عن الإسلام من أهل الذمة في بلاد المغرب والذين كانوا يعرفون في العصر الإسلامي كما يرى هوبكنز بالمولدين، والعجم، والأفارق، والمعاهدين، والتسمية الرئيسة هي "مولد" التي ترد في أربعة مواضع، حين تحدث

¹ - رسائل إخوان الصفا، (الجزائر: موفم للنشر، 1992)، 152/4.

² - برنارد لويس، أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، مراجعة وتقديم خليل أحمد خليل، (ط، 3، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1993)، 1562.

³ - ابن حمدة، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، (تونس: مطبعة دار الغرب، 1986/1406)، 46. 48، إسماعيل سامعي، القاضي النعمان رسالة دكتوراه، 2003/14023، ص، 282.

البكري عن بسكرة، وميلة، وطولقة، وطبنة¹، ويذكر مارسية أن لفظة المولدين تعني النصرى، ويستنتج هوبكنز من ذلك أن اليهود والنصارى كانوا من السكان الأصليين²، والذين احتفظ الكثير منهم بديانتهم مقابل دفع الجزية مما يدل على وجود الكثير من الكنائس في مختلف الجهات، كما احتفظوا بلغتهم حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي مما يدل على عدم إكراههم على ترك ديانتهم³.

الثاني: أهل الذمة من اليهود والنصارى وغيرهم الذين جاءوا أو جلبوا من المشرق

مع الجيوش، أو ضمن الموجات البشرية، أو التجارة، واستقروا في جهات مختلفة من بلاد المغرب أكثرهم في الحواضر، وبعضهم في الأرياف.

1- في الدولة الرستمية :

لا تذكر المصادر عن وجود أهل الذمة في الدولة الرستمية إلا نثفاً، لكن تجميع هذه التفت بين أهمية هذا الوجود الذي يتميز بالتنوع، وقد اعتمد الكثير من المؤرخين والكتاب في حديثهم عن وجود أهل الذمة في الدولة الرستمية على إشارات ابن الصغير منهم عدد من المستشرقين، لاسيما أن ثمة إشارة واضحة إلى وجود الكنائس والبيع في جبل نفوسة وقراه⁴، ولا ريب أن هذه الكنائس كانت قائمة

¹ - المغرب، في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، (بغداد: مكتبة المثنى، د ت)، 561، 562، 64، 72، هوبكنز ج. ف. ب، النظم الإسلامية في بلاد المغرب في القرون الوسطى، ترجمة، أمين توفيق أمين الطيبي، (ليبيا/ تونس: الدار العربية للكتاب، 1980)، 1246.

² - النظم، 124، 125.

³ - ح ح عبد الوهاب، ورقات في الحضارة العربية بإفريقية التونسية، (تونس: منشورات مكتبة المنار، 1981)، 306/3.

⁴ - عياض القاضي، تراجم أغلبية مستخرجة من مداركه، تحقيق، محمد الطالبي، (تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968)، 380، 409.

في أقاليم الدولة الرستمية بل في عاصمة الدولة نفسها تيهرت، حيث أشار ابن الصغير إلى أحداها فقال: "موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة"¹.

وقد أشار أيضا كل من البغطوري و الشماخي إلى وجود اليهود في أقاليم الدولة الرستمية من ذلك أن رجلا يهوديا تخاصم إلى قاضي من قضاة نفوسة على ثمن دابة أعطاها رجل من أهل ويغوا لليهودي فباعها وجحده...؛ ويعلق الشماخي على طريقة القضاء فيقول: لعل القاضي قد علم مثلها لليهودي أو عنده الخبر ممن يثق به²، كما نجد الإشارة إلى مثل ذلك في مسائل نفوسة حيث تحدثت إحداها عن شهادة الذمي، فقالت بجوازها إلا في الوديعة³، وفي المسائل أيضا: " وذكرت ثمار الأجنة التي يضعها النصرى والصابيبن (لكنائسهم) (وهم معنا تباع وتنفق) إن كانت تشتري أم لا ؟ والجواب: إنها تشتري لأن أهلها جعلوها للكنائس وتنفق أثمانها على الكنائس فبيعها جائز"⁴.

ويتبين من خلال هاتين النازلتين أن وجود أهل الذمة كان معتبرا إلى درجة أن جعلت الناس يطرحون قضاياهم على رأس الدولة الإمام عبد الرحمن بن رستم نفسه لأجل التقنين لها بصورة جد طبيعية ودون تمييز، وهو ما يعطي الانطباع بأنهم كانوا يتمتعون بكامل المواطنة.

وكان التعامل معهم يتم في احترام كامل لتعاليم الإسلام ، وتعاليم دينهم، مع سعي المسلمين على عدم التعدي أو المس بتعاليم أهل الذمة من ذلك مسألة شراء الغنم التي يكره اليهود هل يصلح شراء شيء منه؟ فرد الإمام عبد الرحمن بن رستم

¹ - أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، (الجزائر: المطبوعات الجميلة، 1986)، 69.

² - البغطوري، سيرة أهل نفوسة، مخطوط ق 51 = نقلا عن بحاز إبراهيم، القضاء في المغرب العربي من تمام الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية، (الأردن: دار الباقوت للطباعة والنشر والتوزيع مركز جوهرة القدس التجاري، 2001)، 365، الشماخي، سير 321.

³ - الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، كتاب مسائل نفوسة، تحقيق وترتيب إبراهيم طلاي، (غرداية/ الجزائر: المطبعة العربية، 1991).

⁴ - نفسه، 141.

قائلا: "لابأس بشراء ذلك، والله تعالى لم يحرمه علينا في شيء من كتاب، ولا في سنة النبي ﷺ، وليس ما حرموه على أنفسهم مما لم يحرمه الله علينا"¹، وكأنه يريد قول الله تعالى: "لكم دينكم ولي دين"²، ومثل هذا تكرر في تاريخنا الجزائري حيث اعتبر أحمد بن زكري التلمساني³ (ت 1494/899) فتوى محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 1503/909)⁴ بهدم كنائس توات ظلما لأهل الذمة، وقال: "هدم الكنائس المسؤول عنها لا يجوز بمقتضى الشريعة المحمدية على رأي المحققين في الفقه المالكي الناظرين به في القضية"⁵، وبنى رأيه على أن المالكية قضوا بملك الحائز موضعاً مدة الحيازة بشروطها، ثم أضاف: "فلا يتعرض لهدمه لأنهم محمولون على أن ذلك أمر أعطوه، حتى يثبت تعديهم في بنائهم؛ فإن ثبت ذلك وجب هدمه"⁶،

¹ - نفسه، 137.

² - الكافرون،

³ - أحمد بن محمد بن زكري التلمساني تعلم في صغره حرفة النسيج، ثم أخذ العلم عن مشايخ عصره، وتفوق فيه، وجلس للتدريس، كما له عدة تأليف منها تأليف في مسائل القضاء والفتيل، وشرح عقيدة ابن الحاجب سماه "بغية الطالب"، ومنظومته الكبرى في علم الكلام في أكثر من ألف وخمسمائة بيت وغيرها أنظر، ابن مريم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1986)، 38.

⁴ - محمد بن عبد الكريم بن محمد أبو عبد الله المغيلي التلمساني، ولد بتلمسان ونشأ بها، ورحل إلى بجاية فدرس بها وأخذ العلم عن مشايخها، ترجم له التبكي في نيل الابتهاج، من شيوخه لإمام عبد الرحمن الثعالبي، وبعد إتمام دراسته انتقل إلى مدينة توات بالقرب من واحة تقرت في سنة 1479 ثم بتمنظيط بحي أولاد يعقوب، قبل أن يستقر بتازولت حيث يوجد اليوم ضريحه والزواية التي أسسها. أنظر، أحمد بابا التنبكي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج - على هامش كتاب الديباج المذهب، (مصر: مطبعة السعادة، 1911/1329)، 330، الونشريشي أحمد بن يحيى، المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى عماء إفريقية والأندلس والمغرب، خرجة جماعة من الفقهاء بإشراف، محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1981/1401)، 2/214، ابن مريم، البستان، 253، عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، (بيروت: دار الثقافة، 1983/1403)، 71/3.

⁵ - المعيار المغرب، 223/2.

⁶ - القرافي بدر الدين، الدرر النفائس في شأن الكنائس، دراسة وتحقيق ن حسن حافظي علوي، (الرباط: دار أبي قرافي للطباعة والنشر، 2003)، 138.

وكان محمد بن عبد الكريم المغيلي قد تلقى جواب ابن زكري حول قضية الكنائس في توات ومن جملة جوابه: "وأما كنائس البلاد الصحراوية فأقرب شيء في تلك البلاد أنها مملوكة لأهلها بالأحياء والاختطاط، ويعد فيها أن تكون عنوة أو صلحية، ولا سبيل إلى هدم ما وجد فيها من الكنائس إلا إذا ثبت أن أهل تلك البلاد الذميين ملكوا الأرض على أن يبنوا الكنائس، وإثبات هذا من المتفق عليه منع الإحداث به، وعلى وجوب الهدم، وإخفاء في عدم ثبوت ذلك، وأما سواء فلا يصح معه الهدم بوجه من الوجوه إلا بوجه العدو والظلم..."¹

في الدولة الفاطمية :

نحن نعرف أن العرب والمسلمين كانوا متسامحين جدا مع أهل الأديان لاسيما اليهود والنصارى باعتبارهم من أهل الكتاب، ومما يذكر عن التسامح الطبيعي هو أن الفضل بن روح والي إفريقية (177 . 178 / 793 . 794) قد سمح وبشكل عادي ودون رد أي فعل لقسطاس النصراني ببناء كنيسة في القيروان²، ولا ريب أن القيروان وهي حاضرة المغرب كانت قد بقيت بها طوائف من هؤلاء، ويذكر المالكي أن الإمام سحنون (160 - 240 / 777 - 854) كان في عهده رؤساء كنائس في القيروان، وكان يستدعيهم ويستقبلهم ويتحاور معهم³، وذلك في العهد الأغلبي 184 . 800/296 . 909)، بل ازداد عددهم في العصر الفاطمي (296 . 361 / 909 . 972) لأن الفاطميين اعتمدوا عليهم في الجيش، لاسيما الصقالبة، إلى جانب اليهود والذين أسلم الكثير منهم، كما اعتمدوا عليهم في الحياة الاقتصادية كالتجارة، والنظم المالية، وقد أشار القاضي النعمان إلى عبيد الله المهدي الذي اتخذ العبيد من السودان والروم

¹ - الونشريسي، المعيار، 2/ 218

² - الرقيق القيرواني، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، (تونس: رقيق السقطي، 1968)، 185.

³ - المالكي أبو بكر، كتاب رياض النفوس، تحقيق، بشير البكوش، ومحمد العروسي المطوي، (بيروت: دار العرب افسلامي، 1983/1403)، 380.

عندما دخل القيروان في جيشه وحرسه¹، ويبدو من خلال هذه الإشارات أنه تعدد وجود أهل الأديان والعقائد، وقد تمتعوا بمكانة سامية لا ريب، لأنهم احتلوا مواقع في سلم هرم المجتمع، ويفسر هذا المواطنة الكاملة التي نالوها سواء بقوا على دينهم أو أسلموا.

وأهل الذمة كانوا نخبة مقربة من الخلفاء الفاطميين، الذين قدموا خدمات جليلة للدولة الفاطمية نذكر منهم جوهر الصقلي، والأستاذ جودر، وميسور، وقيصر ومظفر، وإسحاق بن سليمان الإسرائيلي الطبيب، وموسى بن العيزار أو العازار الإسرائيلي الطبيب العالم الذي خدم الخليفة المعز لدين الله، وصنف الكثير من الكتب الطبية منها "الكتاب المعزي في الطب" ألفه للخليفة المعز²، وجل هؤلاء أسلم، ومنهم من دخل الإسلام شكلاً، وكان بعض هؤلاء من النافذين في الدولة كابن كلس اليهودي الأصل³.

ونخلص هنا إل نتيجة وهي أن أهل الذمة تعددت مجالات نفوذهم وظهورهم في الدولة الفاطمية، فهي مجالات السياسة، والجيش، والعلم والفكر إلى جانب التجارة ميدانهم الأساسي.

❁ مكانة أهل الذمة ونظرة الدولة والمجتمع إليهم:

لقد عاش أهل الذمة من يهود ونصارى حياة طيبة باعتبارهم مواطنين كباقي المواطنين دون تمييز، بل وشكل الكثير منهم طبقة متنفذة اقتصادياً، وسياسياً، وعلمياً، وهو ما نبينه فيما يأتي:

¹ - كتاب افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، (تونس/ الجزائر: الشركة التونسية للتوزيع، وذيوان المطبوعات الجامعية، 1986)، 303 فقرة، 275.

² - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت)، 545.

³ - المقرئزي تقي الدين، الخطط، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، د.ت)، 268/2؛ اتعاط الحنفاء، تحقيق محمد علي أحمد (القاهرة: مطابع الأهرام التجارية، 1996/1416)، 144/1؛ المناوي محمد محمود، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي، (القاهرة: دار المعارف بمصر)، 241.

1 . من الناحية الاقتصادية : شكلوا طبقة غنية لم يصلها أقرانهم من عموم

المسلمين لما تمتعوا به من حرية في العمل، وحماية تامة وقانونية في ظل الشريعة الإسلامية، والدولتين الرستمية والفاطمية، من ذلك أن الأحكام الفقهية كانت تضمن لهم هذه الحرية، فقد ورد في المدونة المسألة الآتية: "أَرَأَيْتَ النَّصْرَانِيَّ إِذَا اتَّجَرَ فِي بَلَدَةٍ مِنْ أَعْلَاهَا إِلَى أَسْفَلِهَا وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى غَيْرِهَا ؟ فَقَالَ : لَا يُؤْخَذُ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ كُرُومِهِمْ وَلَا مِنْ زُرُوعِهِمْ وَلَا مِنْ مَاشِيَتِهِمْ وَلَا مِنْ نَخْلِهِمْ شَيْءٌ، فَإِذَا خَرَجَ مِنْ بَلَدَةٍ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ تَاجِرًا لَمْ يُؤْخَذْ مِنْهُ مِمَّا حَمَلَ قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ حَتَّى يَبِيعَ ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرُدَّ مَتَاعَهُ إِلَى بِلَادٍ أَوْ يَزْتَجِلَ بِهِ إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى فَذَلِكَ لَهُ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا إِذَا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِمْ بِحَالٍ مَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَبِيعْ فِي بِلَادِهِمْ شَيْئًا وَلَمْ يَشْتَرِ عِنْدَهُمْ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ قَدْ اشْتَرَى عِنْدَهُمْ شَيْئًا بِمَالٍ نَاضٍ كَانَ مَعَهُ أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ مَكَانَهُ مِنَ السِّلْعَةِ الَّتِي اشْتَرَى حِينَ اشْتَرَى .

قُلْتُ : أَرَأَيْتَ إِنْ هُوَ بَاعَ مَا اشْتَرَى بَعْدَ مَا أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ حِينَ كَانَ اشْتَرَاهُ ، أَوْ أُخِذَ مِنْ ثَمَنِهِ أَيْضًا الْعُشْرُ ؟ قَالَ : لَا وَلَوْ أَقَامَ عِنْدَهُمْ سِنِينَ بَعْدَ الَّذِي أَخَذُوا مِنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَبِيعُ وَيَشْتَرِي لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ شَيْءٌ .

قُلْتُ : وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْ بِلَادِهِمْ بِمَا قَدْ اشْتَرَى فِي بِلَادِهِمْ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا الْعُشْرَ مِنْهُ مَرَّةً وَاحِدَةً وَقَدْ اشْتَرَى وَبَاعَ مَرَارًا بَعْدَ مَا أَخَذُوا مِنْهُ الْعُشْرَ فَأَرَادَ الْخُرُوجَ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِيمَا اشْتَرَى مِمَّا يَخْرُجُ بِهِ مِنْ بِلَادِهِمْ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . قُلْتُ : وَإِنْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ بِغَيْرِ مَالٍ نَاضٍ إِنَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ بِلَادَهُمْ بِمَتَاعٍ مَتَى يُؤْخَذُ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : إِذَا بَاعَهُ : قُلْتُ : فَإِذَا بَاعَهُ أُخِذَ مِنْهُ الْعُشْرُ مَكَانَهُ مِنْ ثَمَنِ الْمَتَاعِ ؟ قَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : فَإِنْ اشْتَرَى بَعْدَ ذَلِكَ وَبَاعَ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ الْمَسْأَلَةِ الْأُولَى فِي النَّاضِ ، الَّذِي دَخَلَ بِهِ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ .

قُلْتُ : وَهَذَا قَوْلُ مَالِكٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ¹ .

¹ - الإمام سحنون ، المدونة ، 192/2 .

ويبدو أنهم كانوا ارستقراطية تقتني الأرض، وتحتكر استغلال المناجم وتشتغل بالتجارة مع بلاد السودان وغيرها، كما وجدت طبقة وسطى أغلب عناصرها من العناصر الوافدة من مختلف البلاد وفي مقدمتها اليهود¹، وقد هيمن اليهود - حسب رأي محمود إسماعيل في دراسته لليهود المغرب الأقصى - على النشاط المالي فضلا عن التعدين².

وككل أفراد المجتمع كان البعض من هؤلاء يتعرضون للاضطهاد والعقوبات المختلفة، لاسيما وأنهم كثيرا ما كانوا يتعاملون بالربا، والتحايل لكسب المزيد من المال، والعقارات، أو قد يغشون في السعلة، ويغالون في البيع الشيء الذي كان محل متابعة وعقاب، لكنه لم يكن عاما يقول هوبكنز: " وهذا يتفق مع الانطباع العام بأن الاضطهاد النشط لليهود كان دائما حدثا عابرا³.

أما ما أوردته المصادر حول تمييز أهل الذمة لاسيما ما حكاه المالكي من أنه جعل لليهود والنصارى رقاعا بيضاء فيها صورة قرد وخنزير، وعلى أبواب دورهم ألواحاً مسمرة فيها صورة قرد، وضيق على أهل القيروان في الملاهي⁴، فذلك يتصل بمدى التجاوزات والانحرافات في المجتمع عموما، وفي ظروف تاريخية معينة، وليس عاما.

2. من الناحية السياسية : لقد كان لأهل الذمة دور فعال في تسيير أمور الدولتين، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر أي كمستشارين للأئمة وأعوانهم، أو مسؤولين تولوا خططا هامة، لاسيما وأن العجم، وهم أهل الذمة كانوا يشكلون مجتمعا قائما بذاته في تاهرت وغيرها، و لهم حصون خاصة بهم⁵، ولاشك فإن هؤلاء شكلوا ضغطا على الدولة في بعض الأحيان، كما أسهموا في بنائها، وتبقى إشارة هوبكنز إلى المسيحيين

¹ - محمود إسماعيل، الأدارسة في المغرب الأقصى 172 . 375 هـ حقائق جديدة، (الكويت: مكتبة الفلاح، 1989/1489) 45.

² - نفسه، 44 .

³ - النظم، 124 .

⁴ - القاضي عياض، تراجم أغلبية ، 223 .

⁵ - ابن الصغير ، أخبار الأئمة، 94 .

الذين كان منهم من تولى مناصب سامية في عهد الرستمين في تيهرت، وإلى رجل نصراني يدعى بكر بن الواحد غامضة خاصة وأن الأستاذين عوض خليفًا في النظم وبحاز إبراهيم في الدولة الرستمية قد فندا كلام هوبكنز في تفسير لفظة "السمحيين"¹، ومع ذلك يمكن الاستنتاج بأن أهل الذمة كانوا متنفذين ومن المقربين لأهل الحكم في الدولة الرستمية .

ويدل هذا الوجود النوعي لأهل الذمة، وبروزهم على الحرية التي تمتعوا بها في ظل الدولة الرستمية حيث لم نعثر في المصادر على إشارة تبين أي تمييز ديني أو عقائدي لا نظريًا ولا عمليًا، وما يمكن أن يكون قد حدث يدخل في جملة ما يحدث في مختلف الدول والمجتمعات.

أما في الدولة الفاطمية فقد شكل أهل الذمة قوة ظلت تنامي لاسيما وأنه أضيف إليهم عناصر جديدة توافدت إلى بلاد الدولة كما سبق ذكره لسببين : الأول توفر مساحة أكبر للحرية الفكرية، والعقدية، والاقتصادية، والثاني استخدام هؤلاء بكثرة في تسيير شؤون الدولة الإدارية والمالية، والعسكرية، والسياسية كجواهر الصقلي القائد العسكري النصراني، وجوزر، وميسور، وقيصر، ومظفر، وابن كلس اليهودي، والذين اسلموا لكن البعض منهم كان إسلامه ظاهريًا وظل محتفظًا بدينه حسب ما تذكر العديد من المصادر أو ما تستنتجه، كمظفر، وقيصر².

وهؤلاء كانوا مستشارين لأئمة الدولة، وقادة جيوشها، ووزراء كجواهر الصقلي، وابن كلس، وقد ظهر تأثيرهم السياسي في مختلف نواحي الدولة لاسيما السياسية والعسكرية، وتوجيهها.

3. من الناحية الاجتماعية والدينية والعلمية: تذكر المصادر أن إقليم إفريقية ظلت به جماعات من أهل الذمة، وأغلبهم من السكان الأصليين والأفارق الذين حافظوا على ديانتهم اليهودية والنصرانية، وقد استقبلوا إخوانهم في العقيدة من أوروبا يبدو أنهم فروا من اضطهاد الكنيسة الفكري والديني لهم، وتعرضهم لإرهاب اقتصادي، وضغط

¹ - أنظر ابن الصعير، أخبار الأئمة 69، هامش، رقم : 97 ؛ وخليفات، 103، وإبراهيم بحاز، 126 .

² - النعمان القاضي، المجالس والمسائرات ، تحقيق ، الحبيب الفقهي، وإبراهيم شيوخ، ومحمد العلوي، (تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1978)، 435.

اجتماعي، نذكر على سبيل المثال أنه كان يسكن - بأعمال قسطنطينية وتوزر وهي القرى
العديدة المعروفة - " قوم من بقايا نفاوة من البرابرة الذين بقوا هنالك بعد انقراض
جمهورهم ولحق العرب بسائر بطون البربر ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون إلى
سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها أعقابهم" ¹.

وهؤلاء الأعقاب الذين كانوا في عصر ابن خلدون أي عصر الدولة الحفصية
حوالي القرن 8هـ / 14م لا ريب أن أجدادهم جاءوا المنطقة منذ أمد بعيد، وهو ما
يؤكد البكري في إشارة واضحة يقول فيها: " بقرب جلولا منتزها يعرف بسردينية ليس
بإفريقية موضع أجمل منه" ²، ويعلق هوبكنز على هذا الخبر فيقول: بأن هؤلاء كانوا
من الأسرى ³.

لا ريب أن ابن خلدون تحدث عن أعقابهم في القرن الثامن الهجري/ الرابع
عشر الميلادي، وأن أجدادهم أشار إليهم البكري في القرن الخامس الهجري/ الحادي
عشر الميلادي عاشوا ضمن المجتمع المغربي العربي الإسلامي بمكوناته العرقية
واللغوية، وأطيافه السياسية، وتنوعه الاقتصادي، فنالوا حريتهم الفكرية والعقدية بعد
أن فقدوا بعضهم في بلاد كانت تسودها ديانات ومعتقدات أخرى لاسيما البلاد
المسيحية فهاجروا منها إلى بلاد المغرب التي توفرت فيها الكرامة والحرية، في ظل
تعاليم الإسلام وشريعته السمحة المتسامحة.

كما أنهم قدموا عطاء علمياً أثروا به الساحة العلمية والفكرية كابن كلس الذي
تنسب إليه الرسالة المذهبة، والكاتب أبي علي منصور العيزي الجوزري صاحب
كتاب سيرة الأستاذ جوذر ⁴.

❁ النتائج المحصلة:

¹ - ابن خلدون عبد الرحمن : العبر ، (بيروت: دار الكتاب اللبناني ، 1967)، 419/6

² .البكري ، المغرب، 32.

³ - النظم، 131.

⁴ - أنظر مقمة محققي كتابه، محمد عبد الهادي شعيرة، وكامل حسين، (القاهرة: دار الفكر

1954)، 1.

لا ريب أن هذا الوجود الطبيعي لأهل الذمة ضمن المجتمع المغربي العربي الإسلامي، وفي مختلف أقاليم بلاد المغرب الطبيعية والسياسية قد أثمر نتائج جد إيجابية لا يمكن إخفاؤها، ولا التطاول عليها، أو تحريفها لأغراض سياسية، أو جهوية، أو عرقية، أو فكرية، فهي تحدد هوية سكان هذه البلاد في عمقها التاريخي، وأصالة انتمائها البشري واللغوي، وفي وضوح عقيدتها ورسوخها، ومن النتائج التي يمكن الوقوف عليها بعد هذا العرض هي كالآتي:

أولاً: أن أهل الذمة عاشوا ضمن مجتمع المغرب بشكل طبيعي اختلطوا بمكوناته القبلية والسياسية، وكانوا موزعين في مختلف أقاليمه، سواء كانوا من السكان الأصليين، أو ممن هاجروا إلى هذه البلاد طلباً للحرية وللعيش الكريم.

ثانياً: في ظل عدالة الإسلام وشريعته تمكن أهل الذمة من تبوأ المكانة السامية، واحتلال المناصب العليا في الدول المغربية لاسيما الدولتين الرستمية، والفاطمية، في مجالات الجيش كجوهر القائد، والإدارة والمال كجوزر، وابن كلس، بغض النظر عن أصولهم اليهودية والمسيحية، فقدم هؤلاء عطاء حضارياً، وهو ما يدل على أن الإسلام عالمي النزعة، حيث أن تعاليمه تحث على الاستفادة من كل التجارب الإيجابية لكافة أفراد البشرية.

ثالثاً: نظراً لعدالة الإسلام وتعاليمه السمحة، ولهذه الحالة الموصوفة بالحرية الفكرية والعقدية، والتي استفاد منها أهل الذمة أيما استفادة، فقد اهتم الكثير منهم إلى الإسلام وصاروا علماء أعلام أمثال سعيد بن حكيمون أبو محمد النصراني الذي أسلم والده على يد ابن عقيل ابن الأغلب في العهد الأغلبي، وأصبح عالماً من علماء المالكية أخذ عنهم وأخذوا عنه¹، وكذا ابن كلس ذو الأصل اليهودي في العصر الفاطمي وغيرهم.

رابعاً: مما يستتبع أيضاً أن أهل الذمة لم يكن لهم قاض خاص بهم، ولم يؤثر أنهم طالبوا بذلك عكس بعض البلاد الإسلامية كالأندلس، ويدل هذا على أن بلاد المغرب الإسلامي لم يتميز فيها أهل الذمة، ولم يميزوا، فكانوا مواطنين عليهم ما على

¹ - عياض، تراجم، 380.

المسلمين، ولهم ما عليهم، كما وجدوا في أحكام الشريعة الإسلامية، وخاصة أحكام القضاء الإنصاف والعدل الشيء الذي لم يدعوهم إلى المطالبة بقضاء خاص بهم، وقد يرجع ذلك أيضا إلى الظروف التاريخية والاجتماعية التي مر بها المغرب، والطبيعة الجغرافية والسياسة له، كلها عوامل لم تتح الفرصة لنمو مجتمع مستقل بذاته، إلى جانب قلة عدد أهل الذمة بالنسبة للسكان المسلمين، وتوزعهم عبر أقاليم بلاد المغرب ودوله، وقبائله، وتنقلهم الحر والسريع لاسيما أن أغلبهم كان يشتغل بالتجارة.

وختاما أقول

إن هذا العرض عرض لبعض العينات التي تكشف عن طبيعة التركيبة الاجتماعية، والدينية العقدية، والسياسية في بلاد المغرب عموما، وعلى مساحة الحرية الفكرية والدينية التي كانت تتمدد في ربوعه في ظل تعاليم الشريعة الإسلامية، لاسيما أثناء حكم الرستميين بالجزائر "المغرب الأوسط"، وحكم الفاطميين في بلاد المغرب، والمعروف أن حكم الفاطميين كانت انطلاقة الأولى من الجزائر، وقادته، ورجال دولته من الجزائر، فحري بالجزائر، وبلاد المغرب اليوم أن تكون مرة أخرى مكانا للحرية بمفهومها العام دون التفريط في الهوية والأصالة في عصر أصبح يصطلح عليه بعصر العولمة.